



رفضاً للانتحار

في التاريخ اليهودي، ترمز "عقدة مسادة" إلى النزعة الانتحارية التي تفضل الهاك على التسوية، حتى من دون الفاعلية التي تفترضها صرخة شمشوم المذكورة في التوراة "عليّ وعلى اعدائي، يا رب". لكن عقدة مسادة تنتزد الآن بالخروج من التاريخ اليهودي لتقتحم تاريخ العرب، كأنه لم يكفنا الضرر الذي جاءنا من تبني المنطق الشمسي في الآونة الأخيرة. مسادة هو اسم القلعة الواقعة غرب البحر الميت التي انتحر فيها المتبقون من ثورة اليهود ضد الرومان في العام ٧٣ للميلاد، اثر حصار دام أكثر من سنة، فكانت نقطة النهاية لـ"حرب اليهود" التي خاضها الامبراطور تيتوس، ونقطة البداية لـ"الدياسپورا" الكبيرة.

وبعد الف وتسع مئة وبضعة اعوام، عادت عقدة مسادة إلى الواجهة عندما استولى الهاييان الديني على المشروع الصهيوني الذي كان احرز نجاحاته الأولى بفضل اقصى درجات البراغماتية العلمانية. ومن مناحيم بیغن إلى اسحق شامير فبنيامين نتنياهو، صار العديد من اليهود الصهيونيين في العالم يخافون على اسرائيل من استسلام قادتها الملهمين امام عقدة مسادة، حتى اذا جاء اربيل شارون الى رأس السلطة بدا ان السباق الى الانتحار سيغلب اي اعتبار آخر.

والحق ان شارون لم يتأخر في تأكيد المخاوف التي علقت عليه (وهي امان عند كل المتضررين منه)، وكان سلوكه بعد ١١ ايلول "نموذجياً" من هذا المنظار، فخاطر بتوثير العلاقة الحميمية مع الولايات المتحدة، الامر الذي يوازي الانتحار بالنسبة الى اسرائيل. غير ان شارون وجد من ينقذه من لاعقلانيته. وجد من يسبقه الى الانتحار. وجد بعض ضحاياه يستجلبون موتهم من دون ان يأبهوا لانتحاره. وجد عقدة مسادة تنتقل الى فكر سحري آخر، فتؤخر مسادته. لم يكن شارون في حاجة الى البحث طويلاً للعثور عمن يسهل عليه عمله. حتى اذا تغافلنا عن الجذور الملتبسة للاصولية الدينية في الوسط الفلسطيني والدعم غير الملتبس الذي وفرته لها سلطات الاحتلال في بداية الثمانينات على امل اضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية وتجاوز منظمة التحرير (ناهيك باليسار في الاقلية العربية في اسرائيل)، وحتى اذا افترضنا ان صلة التواطؤ الاصلية يمكن ان تستحيل تناقضًا غنيفًا، مثلما حصل بين ابن لادن والاستخبارات الاميركية، كان يمكن شارون ان يرکن الى جهوزية الاجنحة الاكثر دوغماتية في الاصولية الفلسطينية لمحاراته في تصعيد لا طائل للشعب الفلسطيني على تحمله في عصر الانحلال العربي. يحق لشارون ان ينتحر ان شاء، ومعه كل الذين يتشبّهون به.

اما ان تقرّر اقلية في فلسطين "انتحار" شعب باكمله، وبالنهاية عنه، وفي اللحظة التي كان يوشك على قطف ثمار نضاله، ولو مجتازأة، فهذا ما لا يقبله عاقل ولا تقره شريعة. هذا ما لا يجوز ان يحصل، حتى وان تكون الكلفة لمنعه اعلى من دموع العين. وليس شرارة الهجمة الاسرائيلية الجديدة حجة في اي حال من الاحوال لتأجيل الحسم. فهذه الهجمة، على بشاعتها، ليست الضربة القاضية، وياسر عرفات نجا من تهديدات اكثر حرارة في تاريخه الطويل. لكن نجاة عرفات، ومعه



المؤسسات التي بناها الشعب الفلسطيني بالدم والالم والمستقبل الذي يتوق اليه، تستوجب الجسم هذه المرة.

وأول امر يجب ان يحسم هو ان لا ظروف تخفيفية لمن يتلاعب بالمصير الوطني، فليس الجهاد صك براءة وليس كل من يعتقد انه يقاوم اسرائيل براء حكماً من تهمة الانقلابية. ربما كان يمكن التردد لو ان التيارات الاصولية اثبتت انها اكثر فاعلية من غيرها، لكن النجاحات الفلسطينية، واولها بقاء الشعب الفلسطيني حياً، وثانيها استعادة بعض من جغرافيا فلسطين، وثالثها اقتحام الوعي العالمي، لا تعود قطعاً الى الفكر الديني، بل هي جاءت، رغم الاخطاء، بنتيجة ادراك الموازين التي تتحكم بالاطار الاقليمي والدولي (والثقافي ايضاً) للصراع، كما بالمعادلات الاسرائيلية الداخلية.

وليس تجربة جنوب لبنان ما يوحي غير ذلك، اذ ان دقة الحسابات هي التي ميّزت معظم الوقت استراتيجياً "حزب الله"، بصرف النظر عن خطاب يفرط في الجهادية، وآخر دليل عن هذه البراغماتية المقتّعة رضوخ لبنان وسوريا، وإن متأخرين، الى الاملاء الاميركي وسيادة منطق الهدنة على جبهة مزارع شبعا بعد بطلان الحسابات التي كانت استحدثتها. كان يمكن ايضاً التردد لو ان التيارات الاصولية اظهرت قدرة تعبوية فقدتها تيارات أخرى على الساحة العربية.

لكنه سبق للشارع العربي ان اثبت بما لا يحمل اللبس ان فلسطين لم تعد تحرّكه، وهذا هو قد اكّد بالإضافة الى ذلك ان الحمية الاسلامية التي عوّل عليها ابن لادن وما انفك يلوّح بها دعاة الجهاد التلفزيوني بعد ١١ ايلول، ليست اكثراً تحرّيكًا. وامام القبول العربي العارم بالهيمنة الاميركية، ماذا يعني بقاء الخطاب العربي الموجه الى الفلسطينيين، دون سواهم، غير النفاق؟ ام ان على الفلسطينيين ان يموتو تكفيراً عن ذنوب العرب اجمعين؟ قبل تسعه عشر عاماً، لم يجد الديكتاتور الليبي معمر القذافي ما يفعله لنصرة المقاومة الفلسطينية المحاصرة في بيروت سوى دعوتها الى الانتحار الجماعي.

وقدّم، لم يكتثر احد في الشعب الفلسطيني وفي قيادته لهذه النصيحة الكريمة. ولا سبب اليوم لتعديل موقف الرفض لهذه الدعوة، وان جاءت هذه المرة من الداخل. على العكس تماماً، فان الافق اليوم هو اكثراً وضوحاً من اي وقت مضى، رغم حلاكة اللحظة. وفي اي حال، ليس استبطان عقدة من تاريخ العدو ما يصبو اليه السواد الاعظم من الشعب الفلسطيني.

واداً كان لا بد من الاستنارة بشيء من هذا التاريخ، فلعل الافضل الاعطاظ من تجربة بن غوريون، مؤسس اسرائيل الذي لم يتأخر يوماً عن القبول بما اعتبره تنازلاً ولم يتوان، بعد شهر من اعلان الدولة، على نصف باخرة تحمل السلاح الى حركة "ارغون"، سعياً للحفاظ على وحدانية القرار. واداً كان التمثيل بالتاريخ الاسرائيلي صعباً، فيمكن الالتفات نحو ما حصل في افقر بلدان الارض. فلعل الدرس الابشع هو الاتي من افغانستان حيث لم تؤدي فوضوية "تحالف الشمال" الى تصفية الحسابات التي كانت تخشى، ولا جهادية الملا عمر منعه من الرضوخ الى القدر الاميركي، صوناً للارواح.

سمير قصیر



Id-Reference	01-Pr-000483	
Media	(Support)	HC
Title		رفضاً للانتحار
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date	7/12/2001	٢٠٠١/١٢/٧
Author		سمير قصیر
Co-Author		
Keywords		
	Persons	احمق.شامير - بنiamin.Netanyahu - شمشوم - تيتوس - ارييل.شارون - بن.لادن - ياسر.عرفات - مناحيم.بيغن - معمر.قذافي - بن.غوريون -
	Locations	شرق.اوسط - لبنان - سوريا - افغانستان - مسادة - بحر.ميت - جنوب.لبنان - مزارع.شبعا
	Dates	73 D.C.
	Themes	شرق.اوسط - تسوية - شمشوم - توراة - تاريخ.يهودي - تاريخ.عرب - حرب.يهود - مشروع.صهيوني - عقدة.مسادة - ثورة.يهود - دیاسپورا - یهود.صهیونین - ارييل.شارون - اصولية.دينية - استخبارات.اميركية - فلسطين - تيارات.اصولية - حركة.وطنية.فلسطينية - منظمة.تحرير - حزب.الله - طالبان - ۱۱.أيلول - ياسر.عرفات - شعب.فلسطيني - مقاومة.فلسطينية - حرب."ارغون"
Subject		